أثر البيئة الثقافية والطبيعية كمحفزات في تشكيل وصياغة النسيج الحضري
مثال تحليلي للفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين

أ.م.د. ساهر محمد القيسي
كلية الفارابي الجامعة
الباحثة مروة موفق كاظم
مركز التخطيط الحضري والإقليمي/ جامعة بغداد

المقدمة:

إن النسيج الحضري هو المرآة والوثيقة التي تعكس تفاعل الانسان مع البيئة ضمن مكان وزمان محددين، فينتج عن هذا التفاعل تكوينات حضرية من فضاءات يمارس فيها الانسان نشاطاته اليومية سواء كانت هذه الفضاءات داخلية المتمثلة بالكتل البنائية أم فضاءات خارجية تتمثل بالفضاءات المفتوحة بمختلف أنواعها. وإن عناصر البيئة التي تتفاعل مع بعضها لتشكيل النسيج الحضري تتضمن حاجات الانسان ورغباته على مستويين (مستوى الفرد ومستوى المجتمع) لتوفير (مأوى للفرد ومستوطنه حضرية للمجتمع)، وهذه الحاجات ثابتة منذ العصور القديمة الى وقتنا الحالي ولكنها تختلف وفقا لثقافة الحضارات المختلفة، وتختلف كذلك من جيل لآخر ضمن نفس الحضارة. ولأجل تلبية حاجات ورغبات الانسان سواء على مستوى الفرد أم المجتمع ينبغي أن يتفاعل الانسان مع البيئة المحيطة به والمتمثلة بالبيئة الحضرية. فالبيئة الحضرية لأية مدينة هي نتاج لتطورها التاريخي والمادي والثقافي وتتكون من بيئتين:

١-البيئة الثقافية:

وهي تعكس السلوك التقليدي للمجتمع ولا تظهر من تلقاء نفسها وانما تنتقل من جيل الى آخر يستعين بها مجتمع ما لتوجيه سلوكياته ويعمل على تطويرها وتكييفها لتلائم حاجاته ومتطلباته ضمن مكان وزمان معينين. وبذلك فإن كل جيل يضيف عليها او يستغني عن بعض منها بما يلائم واقعه وحاجاته فهي بذلك متغيرة ضمن المكان والزمان. وهي تتكون من عدد من المتغيرات وهذه المتغيرات ليست منعزلة وانما تعمل مع بعضها بشكل متوازن وتتفاعل مع عوامل البيئة الطبيعية بشكل متكامل ومتداخل لتنعكس في النهاية

على تشكيل النسيج الحضري كالخلفية التاريخية والعقيدة الدينية والعادات والتقاليد ومستوى المعيشة والعلاقات الاجتماعية والتكنلوجيا والقوانين التشريعية.

٢- البيئة الطبيعية:

وهي تكاد تكون ثابتة وتلعب دورا كبيرا بتفاعلها مع البيئة الثقافية في تشكيل النسيج الحضري ضمن المكان والزمان وتشمل عدة عوامل منها الموقع الجغرافي والطبوغرافية وعامل المناخ.

وتخضع هذه العوامل لتحولات وانتقالات سريعة ضمن الزمان والمكان، وتفاعل حاجات الانسان ورغباته مع هاتين البيئتين يؤدي ذلك الى تشكيل النسيج الحضري.

- مشكلة البحث:

وجود خلل معرفي في أهمية إدراك عوامل البيئتين الثقافية والطبيعية والعلاقات المتبادلة فيما بينها في تشكيل وصياغة وتطور النسيج الحضري مما انعكس ذلك سلبا على نسيج مدننا المعاصرة التي تعاني من التفكك وضعف الانتماء للمكان وللفضاء وهويته (بين العام والخاص).

فرضية البحث: تفاعل الانسان مع بيئته الثقافية والطبيعية سيحقق نسيجاً حضرياً يتميز بهوية حضرية تعزز من الشعور بالانتماء إليه.

- هدف البحث:

سعى البحث الى توضيح الرؤيا الشمولية لأهمية هاتين البيئتين من خلال الاعتماد على منهج تحليلي واستقصائي تضمن العودة الى جذور النسيج الحضري المتمثل بالفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين، والناتج من تفاعل الانسان مع البيئة ومحاولة الاستفادة منه كونه المرآه والذاكرة الجمعية ضمن المكان والزمان والمولد والمحفز للتطور والرؤيا المستقبلية وكون هذه الفترة قد اسست النواة الأولى في التحضر الإنساني. لذلك سيتم مناقشة الدور الذي لعبته عوامل البيئة الثقافية والطبيعية في تشكيل النسيج الحضري لمدن هذه الحضارة كحالة دراسية وتحليلية لاختبار أهمية هاتين البيئتين.

١-الفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين:

امتلكت ارض الرافدين مقومات أساسية لقيام المستوطنات البشرية الحضرية الا وهي وجود النهرين دجلة والفرات بروافدهما العديدة المنتشرة كالشرايين والعروق والتي تُكَوِنْ شبكة إرواءيه مغذية لأرض العراق محققة له اهم مقومات الاستيطان والازدهار مما ساعد وحفز على تشييد المدن المهمة على ضفافها الخصبة.

١-١ محفزات البيئة الثقافية للفترة السومرية:

طبيعة المجتمع محكومة بمحفزات البيئة الثقافية والطبيعية السائدة في ذلك المكان والزمان، تفاعل فيها الانسان مع الطاقات والقدرات الكامنة في المكان باعتبارها من المقومات الأساسية في نشوء المدن. فطبيعة المجتمع كانت محكومة بعدة عوامل ضمن البيئة الثقافية المتمثلة بالآتي:

١-١-١ -الخلفية التاريخية:

وادي الرافدين مهد اول الحضارات التي عرفها الانسان فعلى ارضه تم اكتشاف أولى التجمعات البشرية التي سكنت ارض الرافدين منذ العصور الحجرية القديمة وإن كان الانسان الأول في العراق قد مارس حياة بدائية بسيطة فانه استطاع ان يتطور عبر الاف السنين وان يؤسس أولى المستوطنات البشرية المعروفة في التاريخ. وفي الوقت الذي كان فيه الانسان الأول في ارجاء الشرق الأقصى واوربا وشمال افريقيا لايزال يسكن الكهوف يمتهن الصيد فان الانسان السومري كان قد حظي أولى خطواته نحو التحضر بالاستيطان وتأسيس القرى الحضرية الأولى.

١-١-٢ -العقيدة الدينية:

اعتقد الانسان السومري بان المياه أساس نشأة الحياة وتطورها. فهي التي انبثق عنها كل شيء وانجبت آلهة السماء وآلهة الأرض واللذان بدورهما أنجبا آلهة الهواء[١]. من هنا جاء تاثير قوة الدين بسبب تاثير البيئة الطبيعية التي لعبت دوراً كبيراً في حياة السومريين. اذ كان للظروف المناخية المتغيرة، الدور الكبير في توفير الخير بمختلف اشكاله وكذلك المتاعب من جفاف شديد الى فيضانات غزيرة وما تخلفه هذه الظواهر من دمار، أثر كبير على تفكير السومريون اذ اعتقدوا بان الظواهر الطبيعية هي التي تحكمهم وتسيطر وتؤثر على حياتهم وزراعتهم. وان الطبيعة تتحكم بمشيئة الانسان وتسيطر على اقداره و هذا الدور الفاعل للبيئة الطبيعية انعكس على السيكلوجيا السومرية حيث اكتسبت نوع من القلق والخوف من الآلهة[٢]. فحفز ذلك على ان يكون الانسان السومري دائم البحث عن الحماية والخصوصية فانعكس ذلك على تشكيل نسيجه الحضري وعمارته. لقد كان الحاكم او الملك هو الحاكم الديني والدنيوي ويسمى بالملك الكاهن ودوره هو

تنظيم جميع شؤون الحياة بالإضافة الى دوره الديني. لذلك نجد في هذه الفترة ان المعبد وسكن الحاكم وجدا مندمجين في هذه الحقبة التاريخية[٣] . ويمثل الدين من اهم العوامل المؤثرة في سير حياة الشعوب السومرية فالمعتقدات والأفكار الدينية تحدد الإطار العام لسلوك المجتمع، حياتهم، عاداتهم، تقاليديهم، أعرافهم وقوانينهم.

١-١-٣ العادات والتقاليد:

عادات وتقاليد المجتمع السومري مرتبطة بعالم الاساطير والتي بدورها مرتبطة بالطبيعة فاعتقدوا بانها عالم غامض لا يمكن الاطمئنان له فجعلت منهم مجتمع محافظ منغلق على نفسه[٤]. وكان السومريون يتطلعون نحو الهتهم كتطلع الخدم نحو اسيادهم بخوف ومسكنة وكانت خدمة الالة تمثل احدى الواجبات المقدسة. كما اعتقد الانسان السومري بان هناك حياة أخرى بعد الموت، وان بلاد اللاعودة كانت فضاء يقع في مكان ما تحت الأرض[٥]. ان هذا الاعتقاد قد انعكس على تشكيل الوحدة السكنية التي لا تخلو من فضاء السرداب الذي يقع أسفل الدار والذي يستخدم لدفن الأموات. من العادات والتقاليد الأخرى للمجتمع السومري هو التأكيد على ان لكل اسرة خصوصيتها كونها تمثل اللبنة الأساسية في المجتمع، صلاحها يعني صلاح المجتمع وفسادها يؤدي الى تفكك المجتمع[٦] .

١-١-٤ العلاقات الاجتماعية:

الاحتفال بالأعياد والطقوس الدينية من اختصاص الكهنة وكان من واجب كل مواطن سومري ارسال النذور وتقديم القرابين للمعابد، وحضور هذه الاحتفالات وإقامة هذه الطقوس هو من الواجبات الدينية الخاصة للتقرب من الآلهة ، ويمثل المعبد مركز اقتصادي يتم بداخله متاجرة الأملاك والعقارات بالإضافة الى أهميته كمركز ثقافي يتعلم فيه الكهنة والكتبة[٧] هذا حفز على ان يكون المعبد وفناءه الداخلي فضاء للتجمع له دور بارز في حياة المجتمع، والعلاقات الاجتماعية التي يضمها ووظائفه المختلفة حفزت على ظهور نوعين من المعابد، معابد أرضية لعامة الشعب تمارس فيها النشاطات أعلاه ومعابد عالية تسمى بالزقورات تمثل مقر وسكن الاله . هناك نوع خر من العلاقات الاجتماعية يتمثل في التعاون ما بين افراد المجتمع في تشييد الوحدات السكنية كما اثبتته العديد من الأدلة في الكتابات المسمارية[٨] مما حفز ذلك على تشكل نسيج عضوي ناتج عن قرارات مشتركة ما بين الافراد وضمن العرف والتقاليد.

١-١-٥ التكنلوجيا:

نشوء المدن بالقرب من مصادر المياه و ما تميزت به الطبوغرافية ذات الطبيعة السهلية المنبسطة حفزت الانسان السومري على التفاعل مع هذه المقومات لتحقيق حاجاته فوفرت هذه البيئة المواد الأولية التي استخدمها في تشييد عمارته واهمها مادة الطين و اللبن وهي المادة المقدسة حيث اعتقد السومريين انها أساس الخلق الإنساني[٩] ، بالإضافة الى مادتي القصب والبردي التي تمثل اقدم مادة بنائية عرفت في جنوب ارض الرافدين وخصوصا في مناطق الاهوار اذ ساعدت على ابتكار الاقبية والقباب التي استخدمت كنظام انشائي لتسقيف فضاءات الاهوار من احزمة القصب ، ومادة الطين واللبن أسهمت في نشوء نظام الجدران الحاملة للأثقال ، اما بالنسبة للتسقيف فقد امتازت اغلب المباني بسقوفها المستوية التي كانت تشيد بإقامة الجسور من جذوع النخيل[١٠] وكان اختراع العجلة من الاختراعات التكنلوجية ذات الأهمية الكبيرة بسبب توسع الأراضي الزراعية فاستخدمت في عملية الحرث من اجل التقليل من الجهد المبذول من قبل الانسان ، بالإضافة الى استخداماتها الأخرى[١١] وهذا الاختراع اثر على تقدم الحضارة العالمية ، وادى زيادة النشاط الاقتصادي وتداول السلع اصبح اكثر تعقيدا فحفز ذلك على اكتشاف اللغة المسمارية والتي من خلالها تمكن الملك او الكاهن من تنظيم الحياة الاقتصادية لمدنهم كما ان تعلم الكتابة أدى الى ظهور نظام مدرسي متميز[١٢] وباعتقاد الباحثة ان لاكتشاف الكتابة دور كبير في تحويل قرارات الملوك والكهنه الى نصوص قانونية ملزمة ومكنت من توفير المعلومات عن التجارب التي خاضها السومريين في تشكيل النسيج الحضري لمدنهم والتي انتقلت الى البابليين والاشوريين في فترات لاحقة.

١-١-٦ مستوى المعيشة:

المجتمع في فترة الحضارة السومرية مؤلف من أربع طبقات

كما ظهر في التنقيبات الاثرية وتصنف هذه الطبقات كما يلي[١٣]:

- طبقة النبلاء هذه الطبقة هي اعلى طبقة في المجتمع والتي تمتلك في العادة العديد من العقارات ويقومون بإدارة أراضي المعبد ويمثلون الفئة الثرية في المجتمع .
- أعضاء مجلس العموم وعادة تملك هذه الطبقة أراضيهم الخاصة
- عامة الشعب تتضمن هذه الطبقة باقي افراد المجتمع من ضمنهم قداس المعبد والفئة العاملة لدى النبلاء.
- طبقة العبيد هذه الطبقة مملوكة من قبل اغنياء المجتمع ويستغلونها لمصالحهم الشخصية وفي الغالب فان العبيد هم أسرى الحروب التي يخوضها السومريون.

١-١-٧ نظام الحكم والقوانين:

نظام الحكم عند السومريين هو نظام ملكي، حاكم المدينة هو رئيس كهنة المعابد (الكاهن الأعلى) ويدير ثروة المعبد واجباته القدسية بناء وترميم المعابد، اما فيما يخص القوانين فقد حددت وحافظت على حقوق الفرد ضمن المجتمع وحقوق المجتمع على الفرد وتنظيم العلاقات ما بين الانسان والمجتمع مع النسيج الحضري ويمثل تطور القوانين احد اهم المقومات الحضارية للمدن ،وكانت القرارات القانونية عند السومريين تتخذ من قبل من قبل سلطتين هما السلطة التشريعية والسلطة الدينية[١٤]، وجود نوعين من السلطات تصدر القوانين دليل على ان نظام الحكم الملكي كان نظاما ديمقراطيا اعطى مرونة وحرية للمجتمع للتصرف ضمن حدود القوانين مما حفز على تشكيل نسيج حضري.

وبما ان الدين في الفترة السومرية لعبت دورا كبيرا في إدارة نشاطات المدينة فان اغلب الاراضي كانت تعود ملكيتها للمعبد، اما بالنسبة للأراضي التي لا تعود ملكيتها للمعبد فان جزء كبير منها هو ملكية خاصة لطبقة النبلاء المتمثلين بالحكام الامراء وعوائلهم وكذلك العاملين في إدارة القصر وكبار الكهنة من أعضاء مجلس العموم، اما الأراضي المتبقية فهي أراضي تعود ملكيتها لعامة الشعب وتختلف مستوياتهم المعيشية من شخص لآخر[١٥] من خلال ما ذكر في الفقرات اعلاه يتضح ان تفاعل حاجات الانسان للحماية والخصوصية مع هذه عوامل البيئة الثقافية قد جسدت لنا صورة المجتمع السومري الذي كان محكوماً بالعامل الديني الذي لعب الدور المهيمن في تشكيل النسيج الحضري. والجدول رقم (١) يوضح أهم محفزات عوامل البيئة الثقافية وكيفية انعكاس كل عامل من هذه العوامل مجتمعةً على تشكيل وصياغة النسيج الحضري.

جدول (١) محفزات البيئة الثقافية للفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين

عوامل البيئة الثقافية	محفزات البيئة الثقافية للفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين	
	اهم محفزات البيئة الثقافية	انعكاسها على تشكيل النسيج الحضري
العقيدة الدينية	● الظروف المناخية القاسية وما تخلفه من دمار أدت الى الاعتقاد بان الظواهر الطبيعية تتحكم بمشيئة الانسان (الظواهر الطبيعية تمثل الالهه) ● الانسان السومري اكتسبه القلق والخوف من الالهه ● خدمة الالهه من الواجبات المقدسة ● تعدد الظواهر الطبيعية أدى الى تعدد الالهه	● المركز الحضري للمدينة يضم اهم الأبنية وهي المعابد (منطقة مقدسة) ● المنطقة المقدسة احيطت بسور ضخم خالي من الفتحات (عزل المنطقة المقدسة الخاصة عن الفضاءات العامة للمدينة)
العادات والتقاليد	● الاسرة هي اللبنة الأساسية للمجتمع صلاحها صلاح المجتمع وفسادها تفكك المجتمع ● الاب بيده جميع السلطات والزوجة مسؤولة عن إدارة شؤون البيت ● الاعتقاد بوجود حياه أخرى بعد الموت وبلاد الاعوده هو فضاء يقع تحت الأرض	● التأكيد على الحماية والخصوصية الاجتماعية للأسرة داخل الوحدة السكنية من خلال اعتماد نمط التوجه نحو الداخل والانفتاح على فناء داخلي ● جدران الوحدات السكنية كتلية صماء خالية من الفتحات● مداخل الوحدات السكنية مزورة والابواب غير متقابلة لتحقيق الحماية والخصوصية

العلاقات الاجتماعية	• المشاركة والتعاون ما بين افراد المجتمع في تشييد الوحدات السكنية • إقامة الطقوس والشعائر الدينية المختلفة • ممارسة النشاطات التجارية داخل المعبد والمعتمدة على المقايضة	• تشكيل النسيج عضوي ناتج عن القرارات المشتركة ما بين افراد المجتمع وفق اعراف وتقاليد اتفق عليها المجتمع في تشييد الوحدات السكنية • ممارسة الطقوس الدينية تتم داخل الفناء الداخلي للمعبد (فضاء عام ضمن المنطقة المقدسة الخاصة) • ممارسة الأنشطة التجارية ضمن الفناء الداخلي للمعبد باعتباره المركز الاقتصادي داخل المدينة • علاقات اجتماعية ما بين افراد الاسرة الواحدة ضمن الفناء الداخلي والذي تنتظم حوله فضاءات المسكن الأخرى
التكنلوجيا	• مادة الطين او اللبن أسهمت في نشوء نظام الجدران الحاملة للأثقال • أسقف المباني عبارة عن سقوف مستوية تشيد من خلال جسور من جذوع النخيل • ابتكار الاقبية والقباب كتقنية بنائية مستوحاة من النظام الانشائي المستخدم في فضاءات الاهوار • اكتشاف الكتابة واختراع العجله	• استخدام نظام الجدران الحاملة للأثقال باستخدام مادة الطين المفخور • امتازت المباني بسقوفها المستوية التي كانت تشيد بإقامة الجسور من جذوع النخيل
مستوى المعيشة	• طبقة النبلاء تدير أراضي المعبد وتمتلك العيديد من العقارات • أعضاء مجلس العموم يمتلكون أراضيهم الخاصة	• المناطق المحيطة بالمنطقة المقدسة خصصت لسكن طبقة النبلاء (الملك والكهنة والقائمين على إدارة المعبد) • عدم وجود تمايز طبقي ضمن الطبقات الأخرى من المجتمع

	٣-عامة الشعب وتختلف مستوياتهم المعيشية ● طبقة العبيد	(الأغنياء والفقراء يتجاورون في الوحدات السكنية تربطهم صلة قرابة او صلة عمل ضمن مجال واحد) ● حجم الفناء الداخلي يعكس الحالة الاقتصادية للأسرة والذي بدوره انعكس على حجم الوحدة السكنية
نظام الحكم والقوانين	● نظام ملكي ديمقراطي للفرد حرية التصرف ضمن القانون ● الملك هو الكاهن الأعلى لاله المدينة ● واجبات الكاهن الأعلى بناء المعابد وترميمها	● اعطى نظام الحكم الديمقراطي حرية في التصرف فجاء تشكيل النسيج الحضري عضوي ناتج عن قرارات مشتركة ما بين الفرد والفرد الاخر ● شبكة الطرق متعرجة ذات نهايات مفتوحة و مغلقة لتعزيز الحماية للاحياء السكنية
	● السلطات نوعين تشريعية ودينية والقرارات القانونية تتخذ من هاتين السلطتين ● قوانين ملكية الأراضي نوعين ، الأراضي المخصصه للمعبد وخدمة المعبد واراضي تعود ملكيتها لعامة الشعب باختلاف مستوياتهم المعيشية	● أراضي المركز الحضري و التي تعود ملكيتها للمعبد تمثل فضاءات خاصة معزولة عن الفضاءات العامة ● الأراضي المحيطة بالمركز الحضري ملكيات تابعه لسكن النبلاء والكهنة (فضاءات عامة خاصة) أراضي ملكيتها لعامة الشعب تمثل فضاءات عامة وسور ثالث لحماية المنطقة المقدسة

الجدول من اعداد الباحثين

١-٢ محفزات البيئة الطبيعية للفترة السومرية:

عناصر البيئة الطبيعية مثلت للإنسان عوامل الخير والشر والتي حفزت على التفاعل معها وذلك عن طريق تدارك اخطارها وإيجاد السبل الكفيلة لاستغلالها إيجابيا.

المدن الأولى لحضارة وادي الرافدين شيدت على ضفاف نهري دجلة والفرات باعتبار ان المصادر المائية هي احدى اهم مقومات قيام الحضارة ومصدر أساسي للحياة على الرغم من انهما قد يشكلان خطرا نتيجة للفيضانات القوية والمفاجئة والتي لا يمكن التنبؤ بها وما يخلفه الفيضان من أراضي مسامية غير خصبة و زيادة في ملوحة الأراضي التي يغمرها[١٦]. إلا أن الانسان السومري تعلم كيفية التفاعل معها واستغلالها لصالحه.

١-٢-١ الموقع الجغرافي:

يعد السومريون من اقدم الشعوب التي سكنت القسم الجنوبي من العراق وعرفت ببلاد سومر وهي تشكل الأراضي الفاصلة بين نهري دجلة والفرات[١٧]. و بسبب حاجة الانسان للحماية قام السومريون ببناء الحواجز والسدود لتوفير المياه عند الحاجة خاصة أيام الصيهود للحماية من خطر الفيضان. فبدأوا بحفر قنوات مائية عديدة لتصريف مياه الأنهار والتقليل من سرعة جريانها بالإضافة الى الاستفادة من هذه القنوات لتوفير شبكات الري لأرواء الأراضي الزراعية الجافة.

١-٢-٢-الطبوغرافية (طبيعة الأرض):

طبوغرافية ارض العراق سهلية منبسطة مفتوحة جعلها عرضة للأقوام الغازية من الشرق والغرب فكان على الانسان العراقي القديم التكاتف والتعاون لبناء السدود وشق الترع والتحصين بالأسوار لغرض الحماية وتسخير الطبيعة لخدمته[١٨]. انعكس تأثير البيئة الطبيعية على تشكيل نمط شبكة الطرق ومواد وتقنيات الانشاء متفاعلة مع متطلبات البيئة الثقافية. حيث استخدمت مادة اللبن والطين كإحدى اهم المواد الأولية للتشكيل الفيزيائي لعمارة الحضارة السومرية، إذ يعتبر الطين المادة البنائية الأساسية في جنوب وادي الرافدين والذي قد تم تغليفه بالآجر وهو الطين المفخور كونه يحقق ديمومة افضل للمبنى ويوفر له إمكانيات تشكيلية اكبر[١٩].

١-٢-٣ العوامل المناخية:

ارض الرافدين معروفة ببيئتها القاسية اذ يسودها مناخ صحراوي ذو طبيعة جافة تكثر فيها الزوابع الترابية وترتفع درجة الحرارة لتصل الى ٥٠ درجه مئوية طوال موسم الصيف يقابله قصر موسم الشتاء وموسم الامطار. كما ان قلة كميه الامطار لا تكفي لتلبية حاجة السكان في الزراعة والاحتياجات الأخرى وبذلك لم يتم الاعتماد على الامطار وانما على الري[٢٠]. اما الرياح السائدة في ارض الرافدين فهي شمالية غربية الملطفة للجو تقابلها في مواسم السموم رياح جنوبية شرقية حارة محملة في الغالب بالأتربة، انعكست بدورها على تشكيل النسيج الحضري وعمارته.

من خلال ما ذكر أعلاه وبالاعتماد على الجدول رقم (٢)، يُلاحَظ أن توقيع المدن بالقرب من مصادر المياه قد حفز على تكوين سور طبيعي لحمايتها من أي هجوم خارجي بالإضافة الى أهميتها الأخرى كمصدر للطعام ومصدر اقتصادي لصيد الأسماك ووسيلة للتنقل والتجارة بالإضافة الى توفير المتعة كعنصر جمالي وملطف للمناخ يوازن جفاف المنطقة.

جدول (٢) يوضح اهم محفزات البيئة الطبيعية للفترة السومرية من حضارة وادي الرافدين وكيفية انعكاسها على تشكل النسيج الحضري

عوامل البيئة الطبيعية	محفزات البيئة الطبيعية للفترة السومرية	
	اهم محفزات البيئة الطبيعية	انعكاسها على تشكيل النسيج الحضري
الموقع الجغرافي	● الأراضي الفاصلة بين نهري دجلة والفرات في القسم الجنوبي من العراق ● ضفافها خصبة حفزت على الزراعة وتكوين مستقرات حضرية	● توقيع المدن عند المصادر المائية دجلة والفرات كونا سور طبيعي يحيط المدينة ويحميها من أي هجوم خارجي● قرب الموقع من مصادر المياه حفز على تلطيف المناخ الحار والجاف وتوفير هواء بارد منعش ● خطر فيضان النهرين حفز على انشاء السدود وشق القنوات المائية لغرض الحماية أولا ثم الاستفادة منها في ري الأراضي الزراعية

طبوغرافية الارض	● أراضي سهلية منبسطة ● منطقة مفتوحة من جميع الجوانب جعلها عرضه للأقوام لغازية ● مادة البناء الشائعة هي اللبن والطين	● حفزت الطبيعة السهلية المنبسطة على تشييد الحصون والاسوار لغرض الحماية ●مادة الطين أصبحت المادة الأساسية في البناء وتم تغليفه بالاجر لتحقيق ديمومة أفضل وامكانيات تشكيلية أكبر
المناخ	● بيئة قاسية يسودها مناخ صحراوي درجة حرارة عالية تصل الى ٥٠° ● قصر موسم لشتاء والامطار ● الرياح السائدة شمالية غربية ملطفة للجو ورياح جنوبية شرقية حارة ومحمله بالاتربة	● النسيج الحضري متضام متوجه نحو الداخل لتقليل السطوح المعرضة لاشعة الشمس والغبار الناجم عن البيئة الصحراوية ● الفناء الداخلي والبادكير والازقة الضيقة هي وسائل لنظام متكامل حفز وجودها للمعالجات المناخية

الجدول من اعداد الباحثين

٢ تشكيل النسيج الحضري لمدينة أور:

من خلال استعراض مقومات البيئة الثقافية والطبيعية للحضارة السومرية سنوضح الدور الكبير الذي تلعبه هذه العوامل وكيفية انعكاسها في تشكيل النسيج الحضري لمدينة اور، وسنلقي نظرة مكثفة عليه كونه يعتبر مثالا حيا في جميع جوانبه لدول المدن السومرية المستقلة:

٢-١ سور المدينة: مدينة اور كانت بمثابة جزيرة ما بين نهر الفرات وقناة مائية، ذات شكل بيضوي يحيطها سور من جميع جهاتها يحتوي مدخل واحد يمكن الدخول الى المدينة من خلاله بالإضافة الى وجود مدخل من نوع اخر متمثل بميناءين احدهما في الجهة الشمالية والأخر في الجهة الغربية من المدينة تستخدم فيه القوارب كوسيلة للنقل ولهما دور كبير في نشاط التجارة مع المناطق المجاورة[٢١]. ومن خلال ما ذكر يمكن ان نلاحظ الدور الكبير الذي لعبه نهر الفرات في حماية المدينة من خلال كونه يعمل سور طبيعي يحيط المدينة ويحميها من أي مخاطر وهجوم خارجي، وكان لشق القنوات المائية أيضا ساهم في تقليل خطر فيضان نهر الفرات وكذلك الاستفادة منها في ارواء الأراضي الزراعية.

٢-٢ مركز المدينة:

المركز الحضري للمدينة (المنطقة المقدسة) مؤلف من مجموعة من أبنية نصبيه ذات خصائص دينية. هنا يظهر الدور المهيمن الذي لعبه العامل الديني في تشكيل نسيج المدينة لاحظ الشكل (١-أ)، اذ يضم المركز الديني معبد المدينة حيث يمثل هذا المعبد مقر الاله على الأرض، وبسبب الحاجة للحماية احيطت المنطقة المقدسة وما تتضمنه من (أبنية المعابد وقصر الملك و الأراضي التي تعو د ملكيتها للمعبد) بسور ضخم من الطابوق وجدران الأبنية كتلية عالية خالية من الفتحات وتعزيزا للحماية والخصوصية فقد اعتمدت جميع ابنية المنطقة المقدسة على نمط التوجه نحو الداخل من خلال الانفتاح على فناءات داخلية مفتوحه وتعتبر المنطقة المقدسة فضاءات خاصة معزولة عن باقي أجزاء المدينة لاحظ الشكل (١- ب). ويضم المركز أيضا الزقورة والتي تمثل أحد اهم هذه المعابد ونقطة جذب بصري للمدينة بأكملها. يتركز في فناءها الداخلي النشاط الاقتصادي بجميع انواعه كما موضح ذلك في الشكل (١-ج). اما الاراضي والفضاءات المحيطة بالمنطقة المقدسة فهي فضاءات شبه خاصة تتضمن ملكيات وفضاءات تابعة لسكن النبلاء والكهنة وعوائلهم، راجع الشكل (١-د). اما الفضاءات العامة فهي الأراضي المتبقية من النسيج والتي تعود ملكيتها لعامة الشعب.

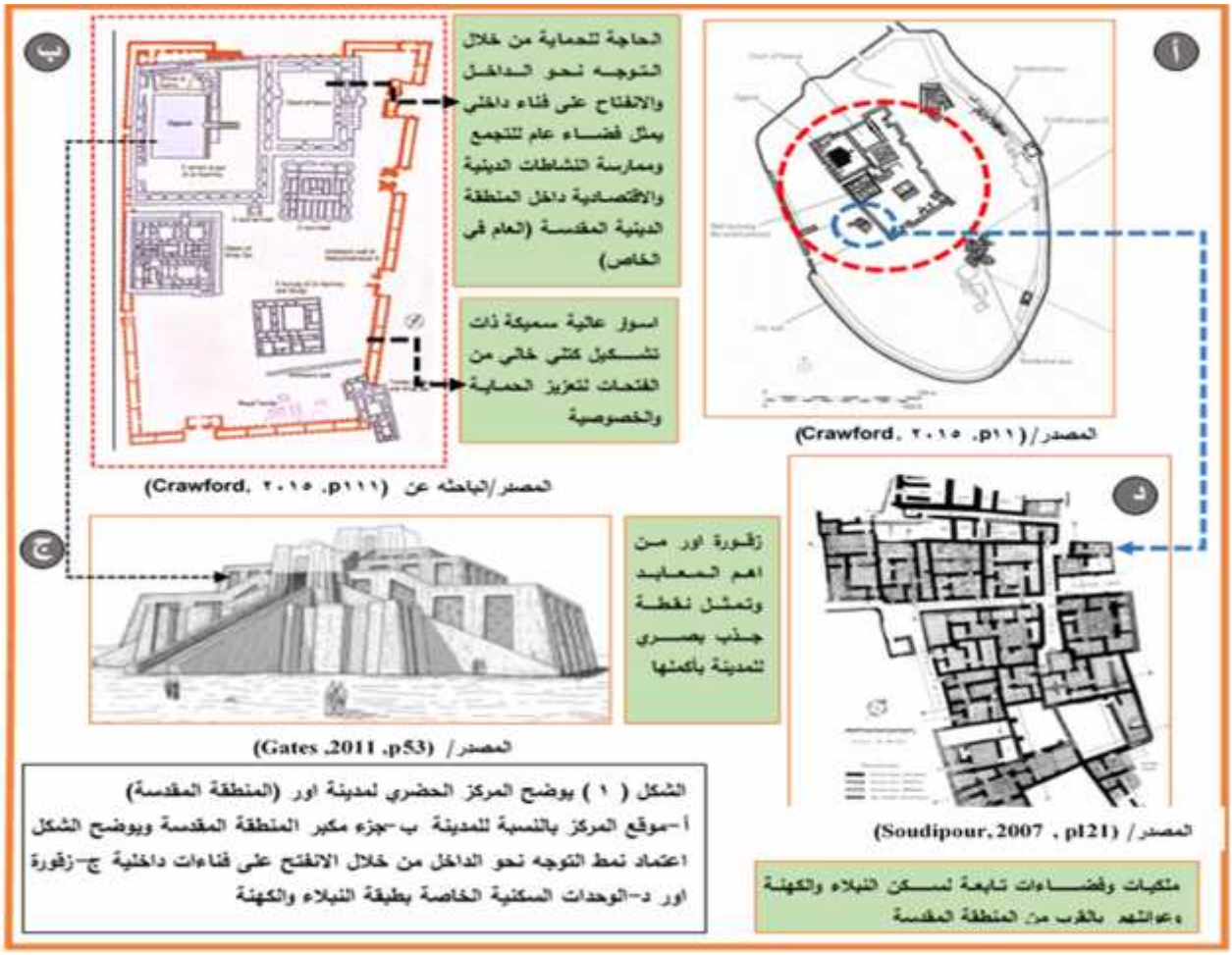

من خلال ما ذكر أعلاه نجد أن هناك تدرج واضح في الفضاءات على مستوى النسيج الحضري بأكمله من العام الى الخاص من خلال اعتماد مفاصل حركية تتمثل بالمحاور المنكسرة والمداخل المزورة للتأكيد على الخصوصية بالإضافة الى الفناءات الداخلية المفتوحة التي تمثل فضاءات انتقالية مفصلية عامه معزولة عن الفضاءات الخاصة الأخرى. هذا يؤكد على ان العام في الخاص أي ان الفناء الداخلي للمعبد والقصر هي فضاءات عامة ضمن الفضاء الخاص وينعكس هذا المبدأ على المنطقة السكنية ايضا وعلى مستوى المسكن الواحد، حيث يعتبر الفناء الداخلي للمسكن هو فضاء خاص بالنسبة للحي السكني العام ويعتبر هذا الفناء عام بالنسبة لفضاءات المسكن الخاصة، وهذه الفناءات تمثل فضاءات تجمع لتقوية العلاقات الإنسانية والتفاعل الاجتماعي ما بين الافراد سواء كان ذلك على مستوى المجتمع

بأكمله، حيث تمارس ضمن فناءات المعابد والقصور الطقوس والمناسبات الدينية في مركز المدينة، او على مستوى العلاقات الاجتماعية ما بين افراد العائلة الواحدة، وتمثل هذه الفناءات نقاط استقرار وانطلاق الى الأجزاء الأخرى للمسكن .

وهيمنت السلطة الدينية في إضفاء التنظيم الهندسي على الشكل الكلي للمبنى فتحول الى جزء قائم بذاته اما باقي أجزاء المدينة المتمثلة بالأحياء ا لسكنية فهي ذات تنظيم عضوي فالمركز المدني والمعابد هي نتيجة قرار سلطوي اما السكن فانه قرار ناتج من تفاعل الانسان مع المجتمع والبيئة ضمن العرف والتقاليد حيث ان الجزء يذوب ضمن الكل الواحد وكما مبين في الشكل (٢).

الشكل (٢) علاقة الكتلة بالفضاء لنسيج مدينة اور
المصدر/ اعداد الباحثين عن (Al-Kaissi , 1983, p150)

٢-٣- الاحياء السكنية:

الاحياء السكنية لمدينة اور تعطينا انطباع عن خصائص النسيج للمنطقة في تلك الفترة فهو عبارة عن كتل متضامة مع بعضها البعض، تتميز بطرق متعرجة وملتوية تتدرج في حجمها وخصوصيتها من شوارع عامة واسعه بعض الشيئ الى شوارع شبة عامة أصغر حجما تتفرع منها ازقة ضيقة متعرجة ذات نهايات مغلقة لتوفير الامن والحماية والخصوصية لسكان الحي والتي بدورها اعطت إمكانية الوصول لمجموعة من المساكن التي يشترك افرادها الزقاق نفسه لاحظ الشكل (٣). كما ان هذه الازقة المتعرجة والضيقة توفر الحماية ضد اشعة الشمس وكذلك الغبار الناجم من الرياح البيئية الصحراوية وعلى طول هذه الشوارع تحاك وتنسج البيوت السكنية المتضامة والمتراصة مع بعضها والتي تتميز بتوجهها نحو الداخل لتفتح على فناءات داخلية كما في الشكل (٤).

اعتماد نمط التوجه نحو الداخل لتحقيق الحماية الاجتماعية والمناخية من خلال الانفتاح على فناءات داخلية , ويوضح الشكل التباين في مساحات الفناءات الداخلية للنسيج الحضري لمدينة اور تعكس احجامها الحالة الاقتصادية للأسرة مما يدل عدم وجود تمايز طبقي

الشكل(٣) يوضح شبكة الطرق المتعرجة وتخطيط الوحدات السكنية لنسيج مدينة اور
المصدر/ Al-Kaissi , 1983, p 150

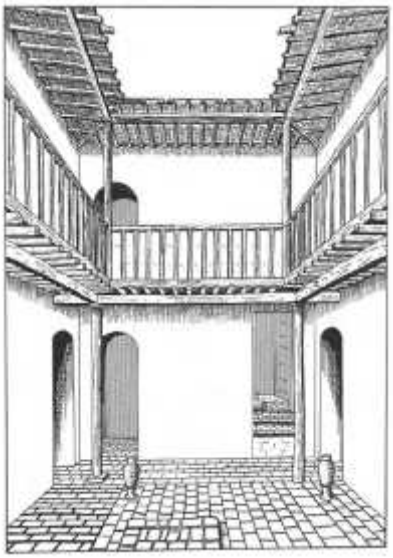

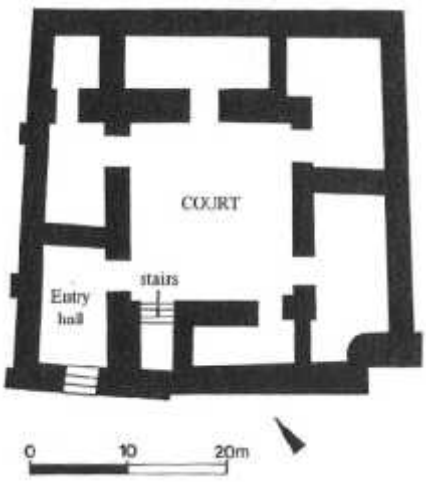

ب

أ

الشكل (٤) يوضح وحدة لسكنية في مدينة اور.
أ- مخطط الوحدة السكنية ب- منظور داخلي للوحده السكنية . المصدر/ Gates ,2011 ,p53

أما تكنلوجيا البناء التي كانت متوفرة ضمن هذه البيئة هي مادة الطين التي تعطينا إمكانيات تشكيلية اكبر فكانت جدران المساكن كتلية صماء خالية من الفتحات باستثناء فتحات الأبواب الضيقة، وكما ذكرنا في فقرات سابقه ان طبيعة المجتمع في تلك الفتره كانت تتميز بان العائلة لها قدسيتها وقد انعكس ذلك حتى على توقيع أبواب الوحدات السكنية التي لم تكن متقابلة للحفاظ على خصوصية افراد العائلة لاحظ الشكل (٥).

الشكل (٥) يوضح مواقع مداخل الوحدات السكنية للحي السكني لمدينة اور.

المصدر/ الباحثين عن Crawford, 2015, p102

كما ان لاختلاف مستوى المعيشة لأفراد المجتمع أثره على تشكيل وحجم الوحدات السكنية ضمن النسيج الحضري فنجد هناك اختلاف في احجام المساكن ضمن النسيج الواحد وتباين في مساحات فناءاتها راجع الشكل (٣)، اذ ان هذا التباين يعكس الحالة الاقتصادية لأفراد المجتمع ويدل على ان الفقراء والاغنياء متجاورين في الوحدات السكنية وهذا يشير الى انهم كانوا يتعايشون على أساس مجاميع تربطهم صلة قرابة او تعمل في نفس المجال.

وقد انعكس تاثير العوامل المناخية على شكل النسيج الحضري لمدينة اور من خلال اعتماد نمط التوجه نحو الداخل بالنسبة للمدينة بأكملها نتيجة لدرجات الحرارة العالية والرياح الشديدة المحملة بالاتربة وبذلك أصبحـــت اغلـــب الأبنية تتميز بجدرانها العالية والكتلية الصماء والفتحات الخارجية محدودة من اجل السيطرة التامة، كما ان تضام النسيج قلل من تعرض السطوح لأشعة الشمس الساطعة. بالنتيجة فان شكل النسيج عضوي ذا قطع أراضي غير منتظمة والناتج من القرارات المشتركة التي تتخذ ما بين الافراد والذي بدوره ساهم في المعالجات المناخية.

٣-الاستنتاجات الخاصة بالمثال التحليلي:

١. لعب العامل الديني وهو أحد عوامل البيئة الثقافية الدور المهيمن في تشكيل النسيج الحضري لهذه الحضارة اذ أصبح المعبد هو العنصر الأساسي لتنظيم حياتهم وحمايتهم، حيث تفاعلت باقي عوامل البيئة الثقافية معه وبصورة متوازية وتكيفت معه، فحدد الإطار العام لسلوك المجتمع، حياتهم، عاداتهم، تقاليديهم، اعرافهم وقوانينهم. فكانت العلاقات الاجتماعية المتمثلة بالممارسات الدينية والاقتصادية والتعليمية والقضائية تتم داخل الفناء الداخلي للمعبد، فأصبح المعبد هو بمثابة مولد أنشطة الحياة للمجتمع السومري.

٢. ان حاجة الانسان للحماية حفزت على ان يكون توقيع المدن بالقرب من مصادر المياه فكونت سور طبيعي لحمايتها بالإضافة الى أهميتها الأخرى كمصدر للطعام ومصدر اقتصادي لصيد الأسماك ووسيلة للتنقل والتجارة ، وكملطف للمناخ يوازن جفاف المنطقة ، فتقلبات المناخ وبيئته القاسية ذات الطبيعة الحارة والجافة مخاطر فيضان النهرين دجلة والفرات لم تكن محددات بنظر المجتمع السومري وانما محفزات تعلم الانسان من خلالها كيفية تطويعهما لتلبية حاجاته ورغباته فجاء تشكيل النسيج الحضري محاكي ومتفاعل مع البيئة الطبيعية المحيطة به .

٣ . نمط توجهه النسيج هو نمط التوجه نحو الداخل in ward looking plan وهو نسيج متضام ومتداخل ويعد هذا النمط من أفضل المعالجات لتحقيق الحماية الاجتماعية وبالتالي يوفر حماية مناخية للإنسان من المحيط الخارجي.

٤. التنظيم الشكلي للنسيج عضوي يتكون من ازقة ضيقة متعرجة لتعزيز الحماية والخصوصية ويمثل امتدادا لنمط التوجه نحو الداخل وبشكل متدرج من الفضاءات العامة الى الخاصة ناتج عن التعاون المشترك ما

بين افراد المجتمع لتشكيل نسيجه الحضري ضمن مبادئ البيئة الثقافية للمجتمع في العرف والتقاليد، كما ان هذا التنظيم حفز أيضا على تقليل من تأثير تعرض الجدران الى اشعة الشمس المباشرة كمعالجة مناخية.

٥. بالنسبة للمحاور البصرية فالزقورة تمثل مسكن الاله على الأرض هيمنت على خط سماء المدينة وعلى النسيج الحضري، وأصبحت نقطة جذب بصري ودلالة رمزية للمدينة بأكملها بالإضافة الى مكانتها الاجتماعية.

٦. تدرج ومفاصل واضحة ما بين الفضاءات العامة والخاصة من خلال اعتماد معالجات تمثل حالة انتقالية بين العام والخاص والمتمثلة بالأزقة المتعرجة والمداخل المزورة.

٧. هيمنت السلطة الدينية في إضفاء التنظيم الهندسي على المنطقة المقدسة المتمثلة بمركز المدينة فتحول الى جزء قائم بذاته اما باقي أجزاء المدينة المتمثلة بالأحياء السكنية فهي ذات تنظيم عضوي فالمركز المدني والمعابد هي نتيجة قرار سلطوي اما السكن فانه قرار ناتج من تفاعل حاجة الانسان للحماية والخصوصية مع البيئة حيث ان الجزء يذوب ضمن الكل الواحد ضمن مفهوم العرف والتقاليد السائدة في المجتمع.

٤-الاستنتاجات العامة:

١.الانسان بطبيعته الفيزيائية دائما يحاول الحصول على الحماية والخصوصية وبشكلها المطلق سواء كان ذلك على مستوى الفرد الواحد او المجتمع ومن خلال هذين العاملين فان كل عنصر من عناصر النسيج الحضري للمدينة قد تكيف مع هذه العوامل البيئية وتفاعل معها بشكل متوازن وانعكس ذلك في تصميم النسيج الحضري.

٢.ان عوامل البيئة الثقافية متغيرة اما عوامل البيئة الطبيعية فهي تكاد تكون ثابته ضمن مكان وزمان معينين وتفاعل حاجات الانسان للحماية والخصوصية مع عوامل هاتين البيئتين تجسد لنا صورة المجتمع والتي تنعكس على النسيج الحضري.

٣. التأكيد على أهمية البيئة الثقافية والطبيعية لا تعني إعادة الموروث من خلال الرجوع الى النسيج التقليدي وانما من دراسة وتحليل الأنظمة والمعالجات الحضرية الخاصة بالنسيج الحضري التقليدي والناتجة من تفاعل الانسان مع البيئة من خلال ادراكها والاستفادة منها في تطوير أنظمة النسيج الحضري ومعالجاته عن طريق الاستعانة بمعطيات التكنلوجيا الحديثة والبرامج العلمية المتطورة وذلك لإعادة تقييم وتطوير بنية

النسيج الحضري مما يولد رؤيا متجدده ومعاصرة له تعزز من قيم الهوية والخصوصية المحلية وتقوي اصرة الانتماء ضمن المكان والزمان .

المراجع:

(١) السواح، فراس، "مغامرة العقل الأول، بيروت ، دار الحكمة ،١٩٨٥،ص٢٣-٣٣.

(2) Levack, Brian And Others , " West – Encounters And Transformations", Volume 2 , 3rd Edition , New Jersey, Prentice Hall PTR ,2010,p23.

(٣) عبد الوهاب، جنان عبد الرزاق ، "جدلية التواصل في العمارة العراقية"، الطبعة الاولى، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة ، ٢٠٠٣،ص١٧٨ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٤٣.

(٥) رو، جورج ، "العراق القديم" ، الطبعة الأولى،(ترجمة) حسين علوان حسين ، الطبعة الأولى ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٨٤،ص١٤٣.

(٦) العلي ، صالح احمد واخرون ، العراق في التاريخ ، الطبعة الأولى ، بغداد ، دار الحرية للطباعة والنشر ، ١٩٨٣،ص١٨٨.

(٧) المصدر نفسه ، ص ٢١٢.

(٨) سليم، احمد امين ،"دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم –العراق.ايران"، الطبعة الأولى، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٢، ص١١٣

(9) Huyghe, rene,"larousse encyclopedia of prehistoric and ancient architecture" , Bookthrift Co, 1981,p120.

(١٠) عبد الوهاب ، جنان عبد الرزاق ، "جدلية التواصل في العمارة العراقية"، مصدر سابق ، ص١٩١.

(11) Levack, Brian And Others , " West – Encounters And Transformations.....,p23.

(12) Levack, Brian And Others , " West – Encounters And Transformations.....,p24.

(13) Kramer , Samuel Noah , "The Sumerians–Their History ,Culture And Character , 1st Edition , USA , The University Of Chicago Press , 1963,p77.

(١٤) العلي ، صالح احمد واخرون ، العراق في التاريخ ، مصدر سابق ، ص١٨٨ .

(15) Kramer , Samuel Noah , "The Sumerians–Their History ,Culture And Character , ...,p76.

(١٦) اوبنهايم ، ليو ، بلاد ما بين النهرين ، الطبعة الأولى ، (ترجمة) سعدي فيضي عبد الرزاق، الطبعة الثانية ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ١٩٨٦،ص٥٢.

(١٧) العلي ، صالح احمد واخرون ، العراق في التاريخ ، مصدر سابق ، ص٦٥ .

(18) Levack, Brian And Others , " West – Encounters And Transformations.....,p17.

(١٩) عبد الوهاب ، جنان عبد الرزاق ، "جدلية التواصل في العمارة العراقية"، مصدر سابق ، ص١٨٩.

(٢٠) العلي ، صالح احمد واخرون ، العراق في التاريخ ، مصدر سابق ،ص٣٦

(21) Mieroop, Marc Van De , "The Ancient Mesopotamian City", 1st Edition , New York, Oxford University Publisher Clarendon Press , 1997,p123.

– مراجع الاشكال:

1- Crawford , Harriet , "Ur The City of the Moon God" , Bloomsbury Academic An imprint of Bloomsbury Publishing Plc , First published, 2015.

2-Gates, Charles, Ancient Cities, 2nd edition, New York, published by Routledge, 2011.

٣-Soudipour, Amir H., "An Architectural And Conceptual Analysis Of Mesopotamian Temples From The Ubaid To The Old Babylonian Period " , Master Thesis , Bilkent University, Ankara , 2007.

4- Al-Kaissi . Saher Mohamad ,The Influence Of Natural And Cultural Environment On The Fabric Of The City With Special Reference To Iraq, A Thesis Submitted To The University Of Sheffield For The Degree Of Doctor Of Philosophy – Department Of Town And Regional Planning ,١٩٨٣.